فكرة التوحيد في القرآن الكريم

تأليف

الشيخ أبو الوفا المراغي

الكتاب: فكرة التوحيد في القرآن الكريم

الكاتب: الشيخ أبو الوفا المراغي

الطبعة: ٢٠١٩

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

المراغي ، الشيخ أبو الوفا
فكرة التوحيد في القرآن الكريم / الشيخ أبو الوفا المراغي
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٥٨ ص، ١٨ سم.
الترقيم الدولى: ٩ – ٨١٠ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ١٤٥٢٤ / ٢٠١٨

فكرة التوحيد في القرآن الكريم





بِسم الله الَّرحْمِن الرَّحيِم

قال تعالى:

"الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً".

صدق الله العظيم

مقدمة

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على إمام الموحدين سيدنا مُحَّد وسائر الأنبياء والمرسلين... ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

وبعد... فإن فكرة الحقيقة الإلهية وفكرة توحيد الإله من أسمى الفكر في تاريخ الوجود البشري وأهمها عقلياً ودينياً، فبصحتها يصح الإيمان وتقبل الأعمال.

وقد عالجها الفلاسفة والأنبياء كل بأسلوبه الخاص، عالجها الفلاسفة بأسلوبهم العقلي، فتشبعت بهم الطرق وعمى على الناس وجه الصواب، وعالجها الأنبياء بوحي السماء، فاستبان الحق وإنتشر الضياء.

ورغم ما بذله الفلاسفة وماجاءبهالأنبياء، فقد ظلت الفكرة مجالاً للبحث والنظر حتى جاء الإسلام، فقال الكلمة الأخيرة وأقام الدلائل القاطعة والبراهين الواضحة على الصحيح في هذه الفكرة.

وها نحن أولاً: نعرض في هذه الرسالة منهج القرآن، وما قرره من الحق فيها. ليكون شبابنا على بصيرة من أمرها لتصح عقائدهم وتسلم عقولهم ولا يقعوا فريسة للمذاهب الفاسدة والآراء الضالة وعسى أن نكون قد بلغنا الهدف فيما قصدنا، والله أعلم بما أردنا، وهو حسبنا ونعم المعين.

المؤلف

فكرة التوحيد

فكرة الحقيقة الإلهية وفكرة توحيد الله، أي معرفة الله والتصديق بوحدانيته وأفراده بالعبادة أسمى فكرة في الوجود وأقدمها، وقد شغلت عقول الحكماء والفلاسفة منذ وجد الإنسان ووجد هؤلاء الحكماء والفلاسفة، وهي جديرة بكل عناية وبحث، وكل عناء وجهد، فالوجود الإلهي هو الحقيقة الكبرى الخالدة التي خلق لأجلها الإنسان وأبدع الأكوان كما قال تعالى :

"وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون".

قال بعض المفسرين في تفسير هذه الآية، وإستحسن ذلك التفسير العلامة القرطبي:

وما خلقت الجن والإنس إلا ليعرفوني لأنه لو لم يخلقهم لما عرف وجوده وتوحيده، ودليل هذا التأويل قوله تعالى:

"ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم".

وقال بعض المفسرين من السلف، أيضاًفي تفسيرها:

وما خلقت الجن والإنس إلا ليوحدوني، فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء.

هذا إلى أن معرفة الإله والتصديق به أساس صحة الإيمان وصحة العبادة.

وكانت فكرة معرفة الله وتوحيده ومعرفة صفات كماله مجالاً لأنظار العلماء وأفكارهم وميداناً لإمتحان عقولهم، فاقتحموها وحاولوا كشف حجبها وإجتلاء أسرارها فذهبت بهم الأوهام والظنون مذاهب كثيرة، وملئوا الأسفار والكتب بما وسعة جهدهم وتمخضت عنه عقولهم، وهكذا الشأن في كل غيب يقحم الإنسان نفسه فيه ويحاول كشف خوافيه، ورغم مرور القرون وتسابق العقول وتكدس الأفكار والأبحاث، فما تزال تلك الحقيقة محجبة بجلالها مستورة بأنوارها وأن لهذه العقول الضئيلة أن تخترق تلك الحجب، والأبصار الكليلة أن تنفذ إلى تلك الأنوار وستظل تلك الحقيقة محجوبة إلى ما شاء الله كما أراد الله، ولو علم الله أن في طريق عقولناً وقوة إحتمالنا أن ندرك شيئاً من حقائقها لما أمسك ذلك عنا، ولكنه وهو اللطيف الخبير لم يمتحنا بذلك رحمة بنا وشفقة علينا وإمتحنا بما تطيق عقولنا وإكتفي منا بأن نعرفة بآثاره ودلائل وجوده مما ملأ به الكون من عظائم مخلوقاته في السماء والأرض والبر والبحر وما في أنفسنا، وأنها لكافية عند النظر إليها والتدبر فيها أن تغرس في نفوسنا الإيمان بتلك الحقيقة وتحملنا على القطع بوجودها بل أنها لتكفي في ذلك إذا عرضت على الفطرة الإنسانية السليمة دون عناء في البحث والتفكير.

أدرك الناس منذ وقعت أنظارهم على هذه المخلوقات الهائلة المختلفة الأصناف والأوصاف المتعددة السمات واللغات، إنه لابد لها من خالق ومدبر وأن حقيقته لابد أن تخالف حقائق ما عرفوه وألفوه فما في طوق شيء مما عرفوه أن يخلق ذباباً ولو إجتمعوا له فإفترقت بهم المسالك، فمنهم من ذهب إلى السماء يلتمس تلك الحقيقة في شموسها ونجومها، ومنهم من أخلد إلى الأرض يلتمسها في أشجارها وأحجارها ونباتها وحيوانها، ومنهم من تخيلها آلهة تأكل وتشرب وتتزاوج وتتناسل، حتى كان لكل قطر بل لكل قبيلة وجماعة إله خاص، ولكل شأن من شئون الدنيا إله خاص فاله للنماء والخصب وإله للنور وإله للظلام، وإله للجمال، وإله للحب، وإله للرياح، وإله للبحار، وكان لكل طور إنساني تفكيره المناسب له، في هذه الحقيقة لا يخرج عن نطاق الخيالات والأساطير التي لا يقتنع العقل بها ولا يرضى عنها، وكما تخيلوا لهذه الحقيقة كائنات حية أو ميتة تخيلوا لها كذلك عبادات يتقربون بها إليها حتى ترضى عنهم وتمنحهم البركة والخير ولا تسخط عليهم فتنزل بهم المقت والبلاء قال العلامة النيسابوري في تفسيره: أعلم أن المشركين طوائف منهم من إتخذ إلهه من الأجسام المعدنية كالحجر والذهب والفضة والنحاس، ومنهم من إتخذه من النبات كالشجر، ومنهم من إتخذه من الأجسام البسيطة السفلية كعبدة النار وهم المجوس، والعلوية كعبدة الشمس والقمر وسائر الكواكب، ومنهم من قال: أن مدبر العالمين نور وظلمة وهم الوثنية، ومنهم من قال الملائكة عبارة الأرواح الفلكية، ولكل إقليم روح من الأرواح الفلكية يدبره وكذا لكل نوع من أنواع هذا العالم فيتخذون لتلك الأرواح صوراً وتماثيل يعبدونها وهم عبدة الملائكة، ومنهم من قال:للعالم الهام أحدهما خير وهو الله والآخر شر وهو أبليس.

معبودات القدماء:

وقد لخص بعض الباحثين عن العقائد معبودات القدماء أو آلهتهم في ثمانية أصناف هي:

١-أرباب الطبيعة أو الأرباب التي تمثل منها مشاهد الطبيعة وقواها كالرعد والبرق والمطر والفجر والظلام والينابيع والبحار والشمس والقمر والسماء والربيع.

٢-أرباب الإنسانية وهي الأرباب التي تقترن بأسماء الأبطال والقادة المحبوبين والمرهوبين ويحسبهم عبادهم من القادرين على الخوارق والمعجزات.

٣-أرباب الأسرة وهو الأسلاف الغابرون يعبدهم أبناؤهم وأحفادهم ويحيون ذكراهم بالحفلات والمواسم المشهورة، كما يحيي الناس ذكرى الموتى في هذا الزمان ويزورونهم بالأقوات والألطاف، ولكن مع هذا الفارق البين، وهو أن الرجل الهمجي لا يمنعه مانع أن يجعل الذكرى عباده، وأن يجعل هدايا القبر في حكم الضحايا والقرابين.

٤-أرباب المعاني كرب العشق ورب الحرب ورب الصيد ورب العدل ورب الإحسان ورب السلام.

٥-أرباب البيت كرب الموقد ورب البئر ورب الطعام.

٦-أرباب النسل والخصب وهي على الأغلب الأعم في صورة الإناث ويسمونها بالأمهات الخالدات وقد ترقت مع الزمن إلى واهبات الخلود بعد هبة الحياة.

٧-آلهة الخلق التي ينسب إليها خلق السماء والأرض والإنسان والحيوان.

٨-الآلهة العليا وهي آلهة الخلق التي تدين عبادها لشرائع الخير وتحاسبهم عليها وتجمع المثل العليا للمحاسن والأخلاق وتضمن السعادة الأبدية للأرواح في عالم البقاء.

وهذه الطبقة من طبقات العبادة هي أرقى ما بلغته الإنسانية في أطوارها المتوالية وإستعدت بعده للإيمان بإله واحد لجميع الأكوان والمخلوقات بغير إستثناء أمة من الناس.

آراء الفلاسفة في تعدد الآلهة

وقد علل بعض الفلاسفة تعدد الآلهة في معتقدات العامة بأنهم بحثوا عن الإله في مظاهر الطبيعة المتكاثرة فعددوها ونسجوا حولها الأساطير من تشبيهات الخيال ولكن هذه التشبيهات أن هي إلا رموز مجازية تدل على حقيقة واقعية.

أن من يقرأ تاريخ الفكر البشري عن هذه الحقيقة يعجب أشد العجب كيف إستساغت عقول الناس على مدى تاريخ طويل ما توهموه أو تخيلوه في تلك الحقيقة الكبرى وما تخيلوه أو توهموه في أصناف القربات والعبادات التي يتقربون بها إليها أو يعبدونها بها.

ولعل العقل البشري لم يتخبط في شيء ما تخبط فيإدراك الحقيقة الكبرى ولم يصل على طول المعاناة والبحث إلى شيء يرضي تطلعه، ذلك أنه طلب مالا سبيل له إليه وسيظل في تخبطه طالما إغتر بعقله ومواهبه وسيظل حائراً بين الجحود والإنكار أو الإقرار والإذعان ومصدر الحيرة في هذه الحقيقة أن الإنسان يريد أن يخضع الكون لحواسه فما لم يقع تحت حسه لا يؤمن به ولا يدخل في يقينه وهذا هو الجهل بحقائق الوجود فكم في الوجود من حقائق وأسرار لا تحسها ولا نراها وهي موجودة واقعة لها وجودها ووظائفها يصل العلم كل فترة إلى كشف شيء منها فيؤمن بعد أن كان جاحدا له، خالي الذهن عن وجوده، أن الجاذبية أصبحت من القوانين

الطبيعية المسلم بها لما علم من آثارها ولكن ما يزال العلماء يبحثون عن حقيقتها هل هي مادة أو طاقة؟ ((وقد جهل الناس شأن الشمس الساطعة وهي أظهر ما تراه العيون وتحسه الأبدان ولبثوا إلى زمن قريب يقولون بدوراتها حول الأرض ويفسرون حركاتها وعوارضها كما تفسر الألغاز والأحلام ولم يخطر لأحد أن ينكر وجود الشمس لأن العقول كانت في ظلام من أمرها فوق ظلام ولعلها لا تزال)).

ويقول بعض الباحثين: إن الوقوف عند الإعتراف بالمحسوسات فقط هو من موروثات الإنسانية البدائية. فقد أحس الإنسان قبل أن يفكر فلا جرم ينقضي عليه ردح من الدهر في بداية نشأته وهو يفكر حسياً أو لمسياً فلا يعرف من معنى الموجود إلا مرادفا لمعنى المحسوس أو الملموس فكل ما هو منظور أو ملموس أو مسموع فهو واقع لاشك فيه وكل ما خفي على النظر أو دق عن السمع واللمس فهو والمعدوم سواء.

مجال الفكر البشري:-

لقد ترك الله مجالات واسعة لعقول الناس يفكرون فيها ويبحثون عن جوانب الخير، فقد ترك لعقولهم أن تفكر في معاشهم على إنفساح جوانبه وأن تفكر في الكون وما إحتواه من أسرار وعجائب ولكن لم يترك لهم أن يفكروا في حقيقة ذاته وأقام لهم من الدلائل والمعالم ما يراه كافياً لهم في التعرف عليه والإيقان بوجوده ووحدته دون ذاته وحقيقته، وعلى ألسنة رسله جميعاً بين لهم موقفهم من حضرته وحدودهم التي لا ينبغي أن

يتخطوها، بين لهم ما ينبغي أن يعرفوه عن ذاته وما يفرض عليهم أن يؤمنوا به في تلك الحقيقة فقال لهم:

"ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" ذلك هو القدر المطلوب في معرفة ذاته، وكل محاولة في معرفة تفصيلها فهو خبط في ظلام وحرث في الماء ثم هو مضلة للعقول والأفكار ولقد كان الرسل على حد سواء في شأن معرفة الذات الإلهية، وما خاض رسول فيما نعرف في هذا الطريق لأنه طريق محفوف بالمخاطر فحقيقة ذاته إن لم تكن كلها محجبة عن الرسل فما عرف منها لم يأذن لهم أن يمتحنوا الخلق به وربما كانوا قد خصوا به، ولقد طلب رسول الله موسى أن يرى الله والرؤية نوع كسف وعلم للمدرك ولو اجمالا فقال سبحانه لموسى: "لن تراني ولكن أنظر إلى الجبل فإن إستقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين".

ويستفاد من معنى الآية أن موسى لم يره لأن الجبل لم يستقر وصار دكا– وكأن سؤال موسى لأنه طلب به معرفة ذات الله كان تجاوزا من موسى لحدوده فكان عملا يستوجب التوبة فتاب موسى منه.

ونقل العلامة ابن قطلوبغا قاسم الحنفي عن بعض العلماء في شرحة المسايرة على المسامرة لابن الهمام عند الكلام على الآية:

والممكنات ممتلئة من أسرار الأسماء والصفات والإدراك لا يتحقق إلا من حيث الصفة أما الذات من حيث الصفة أما الذات من حيث هو هو

مستور عن الأنظار ومحجوب عن الأبصار غيب منيع لا يدرك، ذات بحت لا يوصف.

وقال الإمام مُحَمَّد عبده في رسالة التوحيد:-

أما الفكر في ذات الخالق فهو طلب للإكتناء- الإكتناء معرفة كنه الشيء وهو حقيقة وجوده وغايته- من جهة وهو ممتنع على العقل البشري لما علمت من إنقطاع النسبة بين الوجودين ولإستحالة التركيب في ذاته، وتطاول إلى مالا تبلغه القوة البشرية من جهة أخرى، فهو عبث ومهلكة، عبث لأنه سعى إلا مالا يدرك ومهلكة لأنه يؤدي إلى الخبط في الإعتقاد لأنه تحديد إلى ما لا يجوز تحديده وحصر لما لا يصح حصره.

وقال بعض العلماء فيما يتصل بكلام الإمام:-

ومن هنا كان العجز عن إدراك حقيقة الذات الأقدس عقيدة من عقائد الإيمان بالله وكان في الوقت نفسه برهانا على سمو الألوهية الحقة عن الدخول في دائرة التفكير العقلي المحدود بطبعه الذى لا يجد مجالا لتخطيما وراء الكون الذى يتناوله وتجري فيه مقارناته وإستنباطاته وكان الإرشاد إلى معرفته وإلى الإيمان بوجوده من جانب النظر في آثاره ومن جانب الإحساس الداخلي.

معرفة الصفات:-

وقال الإمام مُحَمَّد عبده في محاولة معرفة الصفات:

وما قلناه في الذات من حيث هي يأتي فيها مع صفاتها فالنهي وإستحالة الوصول إلى الإكتناه شامل لها فيكفينا مع العلم بها أن نعلم أنه يتصف بها، وأما ما وراء ذلك فهو مما يستأثر هو بعلمه ولا يمكن لعقولنا أن تصل إليه ولهذا لم يأت الكتاب العزيز وما سبقه من الكتب إلا بتوجيه النظر إلى المصنوع لينفذ منه إلى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية.

ومما أثر في ذلك: تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فتهلكوا وفي رواية: تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله.

التعريف بصفات الله سبحانه:-

ولم يتعرض القرآن في شيء من آياته إلى تعريف ذات الله وإنما إكتفي في التعريف به بالتعريف بصفاته في عشرات من الآيات فقال سبحانه:

"هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق الباريء المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم" (الآيات ٢٢- ٢٤ سورة الحشر).

وقال سبحانه: "الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما" (الآية ١٢ سورة الطلاق).

وقال سبحانه:

"تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور، الذي خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم أرجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير، ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين" إلى غير ذلك من الآيات التي تملأ القلب رهبة بعظمة تلك الذات وتذهب النفس في تصور هيبتها وجلالها كل مذهب، ومجمل ما يقال في عقيدة الذات الإلهية التي جاء بها الإسلام أن الذات الإلهية غاية ما يتصوره العقل البشري من الكمال في أشرف الصفات.

والرسول- ﷺ- والأنبياء من قبله وهم أقرب عباد الله إلى الله لم نجد فيما أثر عنهم ما يشير إلى التعرض لبيان ذاته تعالى، والصوفية ومن على شاكلتهم من العارفين والمحبين- رغم تشوقهم إلى المكاشفة والشهود- لم ينقل عنهم شيء من ذلك وما نقل عنهم في هذا الصدد شطحات وعبارات غامضة ربما زادت الأمر غموضاً وإبهاماً وكثيرا ما يحيلون في ذلك إلى الوجدان والإلهام والذوق ومن عباراتهم في ذلك: من ذاق عرف ومن لم يذق لم يعرف.

دعوة الأنبياء إلى توحيد الخالق

ما بعث الأنبياء لمعرفة الذات وإنما بعثوا جميعاً لدعوة الخلق إلى توحيد الله وإلى أفراده بالعبادة دون سواه كما قال تعالى لرسوله- صلى الله عليه وسلم"وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون" (الآية ٢٥ سورة الأنبياء).

وقال سبحانه:

"ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن أعبدوا الله وإجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين" (الآية ٣٦ سورة النحل).

لأنه هو المستحق للعبادة بما له من صفات القدرة والإبداع والخلق وبما له من العلم والتدبير والحكمة وبما أفاضه على عبادة من نعمة الإيجاد والرزق وبما سخر لهم في الكون مما يصلح به معاشهم ومعادهم.

ولقد كان أول شيء في برنامج كل رسول كلمة التوحيد وأفراد الله بالعبادة.

كانت كلمة التوحيد أول شيءفي برنامج نوح عليه السلام كما حكى الله إذ قال:

"أنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم، قال يا قوم أني لكم نذير مبين، أن أعبدوا الله وأتقوه وأطيعون" (الآيات من ١- ٣ سورة نوح). **وكذلك كانت دعوة هود لعاد.**

قال سبحانه:

"وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون" (الآية ٦٥ سورة الأعراف).

وكذلك كانت دعوة صالح لثمود كما قال سبحانه:

"وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض وأستعمركم فيها فاستغفروا ثم توبوا إليه أن ربي قريب مجيب" (الآية ٦١ من سورة هود).

وكذلك كانت دعوة شعيب لمدين كما قال سبحانه: "وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولاتنقصواالمكيال والميزان أنى أراكم بخير وأني أخاف عليكم عذاب يوم محيط" (الآية ٨٤ من سورة هود).

وكذلك كانت دعوة الياس لقومه كما قال تعالى:

"وأن الياس لمن المرسلين، إذ قال لقومه ألا تتقون، أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين، الله ربكم ورب آبائكم الأولين" (الآيات من ١٢٣ إلى ١٢٥ من سورة الصافات).

وكذلك كانت دعوة إبراهيم كما حكى الله تعالى عنه فقال: "وإبراهيم إذ قال لقومه أعبدوا الله وأتقوا ذلكم خير لكم أن كنتم تعلمون، إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا أن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق وأعبدوا وأشكروا له إليه ترجعون" (الآيات ١٦، ١٧ من سورة العنكبوت).

وكذلك كانت دعوة موسى وهارون إلى بني إسرائيل كما حكى الله تعالى إذ قال: "وإذ قال موسى لقومه يا قوم أنكم ظلمتم أنفسكم بإتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم أنه هو التواب الرحيم" (الآية ٥٤ من سورة البقرة).

وفي جواب موسى لفرعون عن سؤاله عن ربه يقول:

"ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى" (الآية ٥٠ من سورة طه).

وكذلك كانت دعوة عيسى كما حكى الله في قوله:

"وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس أتخذوني وأمي الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق أن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك أنك علام الغيوب، ما قلت لهم ألا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد" (الآيتان ١١٦ و ١١٧ من سورة المائدة).

وكذلك كانت دعوة مُحَمَّد ﷺ إلى الناس كافة ومما خطبه الله تعالى به: "تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم، أنا أنزلنا إليك الكتاب بالحقفاعبد الله مخلصا له الدين ألا لله الدين الخالص" (الآيات من ١- ٣ من سورة الزمر)
ويقول القرآن حكاية عن قول النبي ﷺ:

"قل أني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين" (الآية ٦٦ من سورة غافر).

ويقول له الله سبحانه ليبلغ المشركين: "قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابد ما عبدتم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين".

إلى عشرات الآيات التي طلب فيها منه أن يبلغ الكافرين أن يكفوا عن أشراكهم ويتوجهوا بالعبادة إلى من يستحق العبادة وهو الله الذي توجب الدلائل التي ساقها القرآن استحقاقه لذلك.

لقد كانت دعوة أولئك الرسل إلى توحيد الله وعبادته هي القضية الأولى في دعواتهم وكأنما كانت فكرة وجود الله مستقرة في أذهان أقوامهم فلم يشغلوا أنفسهم بالإحتجاج لها. ويقول العلامة مولاى مُحَمَّد على الهنديفي كتابه الدين الإسلامي المترجم ص ٧٥: ((تتكلم الكتب السماوية السابقة للقرآن عن أن الله موجود حقاً وصدقاً لكنها لم تأت ببرهان واحد يدل على وجوده تعالى حتى نزل القرآن وبه براهين عديدة تثبت وجود كائن أعلى خالق للكون ومدبر له.

ورغم تتابع الرسل بالدعوة إلى تصحيح الفكر في العقيدة الإلهية توحيداً وعبادة ورغم غرور العقلاء بعقولهم ورغم تقدم العلم والمعرفة ظلت البشرية في طوفان من العقائد الفاسدة يأخذها لاحقهم عن سابقهم بزيادة فيها أو نقص منها أو إضافة مصطلحات تزيدها تعقيداً وغموضاً حتى غدت تلك العقائد طلسمات سموها فلسفة قديمة أو فلسفة حديثة وسموا أصحابها فلاسفة مفهومهم فيأذهان الشباب معقدون.

أن بعض هذه الآراء تنزل بأصحابها إلى مدركات الجهل والخرافة وما كان يليق بالبشرية بعد هذا التاريخ الطويل الذي لا يدرك مداه أن تتخذ من الأصنام والأوثان والكواكب والحيوان آلهة دين لها بالطاعة وتسترضيها بالقرابين وأنه لمن المخجل للعقل البشري وفي عصور النور والمعرفة كما يقولون أن نرى طوائف ما تزال تحت سيطرة الأوهام والخرافات في العقيدة الدينية فهناك في شعوب بلغت من التقدم في العلوم المادية ما يبلغ حد الخيال معابد للأصنام تحظى بالقداسة وتقدم لها القرابين وترهب سطوتها ويستجدي رضاها وتقام لها المهرجانات والأعياد.

قد بعث الله محمدا– ﷺ– خاتما لأولئك الأنبياء وأنزل معه القرآن مؤيداً له شاهدا على صدقه بما أودعه فيه من الإعجاز في عصر إضطربت عقول البشر وتبلبلت أفكارهم في عقيدة التوحيد وذهبوا فيه مذاهب شتى منها ما نزل بالعقول عن مسنواها الذي وضعت فيه وخلقت لأجله.

وينبغي أن تنزه عنه، حتى أولئك الذين كانوا قريبي العهد ببعض الرسل والكتب السماوية وكانوا يدعون الإنتساب إليها قد شوهوا عقائدهم وخرجوا بها إلى عقائد فاسدة بالتحريف والتأويل ولقد كان على محمد- ﷺ- أن يتصدى لتلك المعتقدات جميعا ويفندها ويكشف عن زيفها وكانت مهمته قاسية، فقد بعث في قوم أولى بيان ولسن وذوي لدد وخصومة وعلى بصر بوجوه الكلام والجدل كما قال تعالى:

"فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا" (الآية ٩٧ من سورة مريم).

وكان يخاطب أقواماً ينكرون، وأقواماً يشركون، وأقواماً يدينون بالتوراة والإنجيل ويختلفون في مذاهب الربوبية والعبادة وكانت دعوته للناس كافة من أبناء العصر الذي نزل فيه وأبناء سائر العصور ومن أمة العرب وسائر الأمم فلزم في القرآن تمحيص القول في الربوبية عند كل خطاب.

وكان يخاطب العقل ليقنع المخالفين بالحجة التي تقبلها العقول الإنسانية فجاء بكل برهان.

وقد نهض بذلك بما أمده الله به من تأييد وتسديد وإستعمل وسائل الإقناع العقلي والمنطقي والوجداني وسلك بها السبيل التي تلائم كل العقول وتناسب كل المستويات وتأخذ على المعاندين كل نافذة وتنتهي بالإنقياد عند الأنصاف.

وكان يسوق الحجة أحيانا مساق الخبر كقوله تعالى:

"الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها" (الآية ٢٠ من سورة الرعد)، وأحياناً مساق الأستفهام للتوبيخ والتقريع كقوله سبحانه:

"أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أ إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أله مع الله قليلا ما تذكرون، أمنيهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته أله مع الله تعالى الله عما يشركون" (الآية من ٦١ إلى ٦٣ سورة النمل).

قال العلامة السيوطي في الأتقان:

وقد إشتمل القرآن العظيم على جميع أنواع البراهين والأدلة وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد يبني من كليات المعلومات العقلية والسمعية ألا وكتابالله قد نطق به لكن أورده على عادة العرب دون دقائق طرق المتكلمين، لأمرين أحدهما بسبب ما قاله.

"وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم" والثاني أنه المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن أقامة الحجة بالجليل من الكلام فأن من إستطاع أن يفهم بالأفصح الذي يفهمه الأكثرون لم يتخط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا الأقلون ولم يكن لغزاً فأخرج تعالى مخاطبته في محاجته

خلقه في أجل صور لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم ويلزمهم المحجة وتفهم الخواص من أثنائها ما يربي على ما أدركه فهم الخطباء.

لقد حاج رسول الله من أنكر وجود الله ومن أشرك بالله ومن جحد نعمه فقال:"أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون" وقال سبحانه: "أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون، ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون، وأن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون، أن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم أن كنتم صادقين، ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل أدعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون"

وقال سبحانه:

"والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون". (الآية ٧٨ من سورة النحل).

لقد امتلأ القرآن أدلة على وجود الله ووحدانيته ووجوب أفراده بالعبادة ووجوب الإقرار بالفضل وقل أن تخلو سورة من سوره من هذه الأدلة وأقرأ ما شئت من القرآن وإستمع إلى ما شئت منه فستجد الدلائل التي تهولكوتأخذ بلبك وتستأثر بإعجابك لقوة دلالتها وحسن موقعها وجمال صياغتها وبديع تأليفها.

وبمقدار ما أنت عليه من عقل وتنبه وبصر بجمال الكلام وقوة أساليبه يكون حظك من الإعجاب و الفهم والإيمان.

ولقد سمع أعرابي بعض آياته فسجد وقال:

سجدت لفصاحته وما هو بقول بشر.

لقد أثبتت دلائل التوحيد في أكثر سوره من أول سورة إلى آخر سورة منه وقد شغل بعضها حيزاً كبيراً من بعض سوره كالأنعام والنحل والفرقان ويس وفاطر والرحمن والملك والنبأ وعبس، ولا فرق في ذلك بين مكي النزول ومدنيه وأن كانت الدلائل في المكي أغلب منها في المدني حيث كان يخاطب المشركين والمعاندين بمكة صدر الدعوة.

ففي أول سورة منه:

"الحمدلله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وأياك نستعين". وتأتي بعدها سورة البقرة وفي أوائلها:

"يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا الله أندادا وأنتم تعلمون" (الآية ٢١، ٢٢ من سورة البقرة).

وقبل آخره بسورتين صغيرتين:

"قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد".

القرآن والعقل

ولقد اعتمد القرآن في حجاجه على العقل ولكن إتخذ من مظاهر الكون الحسية مادة إستدلاله وإقناعه ليكون الإقناع أقوى وأيسر وأقرب، فما بعد الإقناع بالحس إقناع، وما بعد سلطان الحس حجة، وليشترك في الإقتناع بها جميع الناس على إختلاف مستوياتهم العقلية والثقافية فالقرآن وما به من الحجج قد أنزل ليخاطب به الناس في جميع الأزمان وليس لجيل من الناس دون جيل ولا لقبيل دون قبيل، ولم ينزل ليخاطب به إنسان القرن العشرين فيحيل في الإقناع به على ما كشف العلم عنه من قوانين الكون الخفية وأسراره العجيبة الدقيقة التي يمتاز بها الخاصة بل خاصة الخاصة من العلماء.

اتخذ القرآن من أكبر الأجرام إلى أصغرها مادة تلك الدلائل إتخذ من الإنسان والحيوان، والأرض والسماء والشمس والقمر والليل والنهار والبحار والأنهار والماء والسحاب والرياح، والجبال وغيرها وإتخذ من تطورات الخلق في بعض هذه الأشياء، ومن حركات بعضها، وإختلاف منازلها في مشارقها ومغاربها وما ظهر من منافعها إتخذ من كل ذلك مادة لحجاجه واقناعه.

لقد أطال القرآن في الحديث عن الإنسان في أصل وجوده وفي تطور خلقه في بطن أمه وفي خصائصه، وتميزه عن سائر خلقه تارة بالأجمال وتارة

بالتفاصيل. لأن الإنسان أكرم خلق الله على الله وله سخر الكون ولأنه في حسن صورته وفي بيانه وإختلاف ألسنته وألوانه أعجب شيء في الوجود من حيث الظاهر أما من حيث ما يجن في باطنه من أسرار الخلق وبديع التكوين ومن حيث ما ركب فيه من الأجهزة، وما نيط بها من أعمال، وما هي عليه من إعتدال، وما يطرأ عليها من خلل وإعتلال، فالأمر فيه أعجب والشأن فيه أغرب، وهو الآية الكبرى بين آيات الله ولقد قال أحد الصوفية: فيه إنطوى العالم الأكبر. ومما جاء في القرآن من الإحتجاج على وجود الله وقدرته وتدبيره وحكمته لخلق الإنسان قوله تعالى: "وفي أنفسكم أفلا تبصرون" (الآية ٢١ من سورة الذاريات).

قال العلامة النسفي في تفسير هذه الآية:-

وفي أنفسكم في حال إبتدائها، وتنقلها من حال إلى حال ، وفي بواطنها وظاهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق مما تتحير فيه الأذهان وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول وبالألسن والنطق ومخارج الحروف وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة والبينات القاطعة على حكمة مدبرها وصنعها دع الأسماع والأبصار والأطراف وسائر الجوارح وتأتيها لما خلقت له وما سوى في الأعضاء من المفاصل للإنعطاف والتثني فأنه إذا جسا منها شيء جاء العجز وإذا إسترخى أناخ الذل فتبارك الله أحسن الخالقين.

ولا شك أن النسفي إنما نظر فيما فسروا وإستكشف إلى ظواهر عجائب الله في الإنسان حسبما وصل إليه إجتهاده أما بواطن عجائبه فتعرف فيما وصل إليه الطب وغيره من دقائق الخلق في كل عضو من أعضائه بل في كل خلية من خلاياه. ويعرف كثير منا كيف تفرعت علوم الطب والنفس إلى عشرات من الفروع لتبحث في تحليل وظائف الأعضاء وما يعتريها من الأمراض والأدواء، وما هى في حاجة إليه من العلاج للشفاء.

ففي الإحتجاج بأصل خلق الإنسان يقول تعالى:

"ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظاما لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين" (الآيات من ١٢ إلى ١٤ سورة المؤمنون).

ويقول سبحانه:

"أفرأيتم ما تمنون، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون" (الآية ٥٨، ٥٩ من سورة الواقعة).

وفي الإحتجاج بتطوير خلقه في بطن أمه ومراحل عمره يقول سبحانه:

"هوالذي خلقكم من تراب ثم من نطفه ثم من علقة ثم يخرجكم صفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفي من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون" (الآية ٦٧ من سورة غافر).

ويقول سبحانه:

"الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير" (الآية ٥٤ من سورة الروم).

وفي الاحتجاج بحسن صورته وتعديل تركيبه يقول سبحانه:

"يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أى صورة ما شاء ربك" (الآيات من ٦– ٩ من سور الطارق).

ويقول جل شأنه:

"لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم" (الآية ٤ من سورة التين).

وفي الاحتجاج على الإنسان بجلائل النعم يقول سبحانه:

"والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون" (الآية ٧٨ من سورة النحل).

ويقول سبحانه:

"الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان" (الآيات من ١– ٤ من سورة الرحمن).

ويقول سبحانه:

"ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين" (الآيات من ٨– ١٠ من سورة البلد).

والآيات في الاحتجاج بخلق الإنسان وشئونه وعجائب ما فيه وعجائب نعم الله عليه كثيرة وكثيرة، وحسبنا أن نعلم أن لفظ الإنسان تكرر في القرآن نحو ٦٤ مرة، وقد احتج القرآن بخلق الحيوان وخص بعض أنواع منه.

ففي الإحتجاج بخلقه جملة يقول سبحانه:

"والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء أن الله على كل شيء قدير" (الآية ٤٥ من سورة النور)

وقال سبحانه:

"وأن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها ولكم فيها منافع كثيرة ومنها تأكلون" (الآية ٢١ من سورة المؤمنون).

وقال سبحانه:

"وأن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين" (الآية ٦٦ من سورة النحل).

واحتج بالخيل ودواب الحمل فقال سبحانه:

"والخيل والبعال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون" (الآية ١٨ من سورة النحل).

وقال سبحانه:

"وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه ألا بشق الأنفس أن ربكم لرءوف رحيم".

وقال سبحانه في الأحتجاج بخلق الأبل:

"أفلا ينظرون إلى الأبل كيف خلقت" (الآية ١٧ من سورة الغاشية).

وقال سبحانه في الإحتجاج بالنحل:

"وأوحى ربك إلى النحل أن أتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس أن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" (الآيتان ٦٨، ٦٩ من سورة النحل).

وقال سبحانه في الطير:

"ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء مايمسكهن إلا الله أن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون" (الآية ٧٩ من سورة النحل).

وقال سبحانه:

"أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبض ما يمسكهن إلا الرحمن أنه بكل شيء بصير" (الآية ١٩ من سورة الملك).

وقال سبحانه في الذباب:

"يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له أن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو أجتمعوا له وأن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره أن الله لقوي عزيز" (الآية ٧٣، ٧٤ من سورة الحج).

وإحتج الله بالماء وبين ما فيه من منافع وآثار وأنه عماد الحياة للناس والدواب والثمار والزرع، فقال جل شأنه:

"وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً لنخرج به حبا ونباتا وجنات ألفافا" (الآيتان ١٤، ١٥ من سورة النبأ).

وقال سبحانه:

"وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأجرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه أن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون" (الآية ٩٩ من سورة الأنعام).

وقد تقدم قوله تعالى: والله خلق كل دابة من ماء.

ومما أحتج الله به من خلق السموات قوله سبحانه:

"الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها" (الآية ٢ من سورة الرعد).

وقوله سبحانه: "والسماء بنيناها بأيد وأنا لموسعون" (الآية ٤٧ من سورة الذاريات).

وقوله سبحانه: "وبنينا فوقكم سبعا شدادا" (الآية ١٢ من سورة النبأ).

وقوله سبحانه: "أن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا أن أمسكهما من أحد من بعده أنه كان حليما غفورا" (الآية ٤١ من سورة فاطر).

وقد تكرر ذكر السماء والسموات في القرآن فوق ثلثمائة مرة.

ومما جاء بلفظ السموات قوله تعالى:

"أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون" (الآية ٣٠ من سورة الأنبياء).

وقوله سبحانه: "لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون"(الآية ٥٧ من سورة غافر).

وكما إحتج الله بخلق السموات إحتج بخلق الأرض وقرنها بها في أكثر آيات القرآن لإقترانهما في الأذهان ولظهور الدلالة بهما لأنهما في تقدير العقل البشري أكبر المخلوقات جرما وعظمة. ويقول سبحانه في الإحتجاج بخلق الأرض وما بث فيها من دابة.

"الله الذي جعل لكم الأرض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين، هو الحى لا إله إلا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمدلله رب العالمين" (الآيتان ٦٤، ٦٥ من سورة غافر).

ويقول سبحانه:

"الحمدلله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون" (الآية ١ من سورة الأنعام).

ويقول سبحانه:

"وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين أثنين يغشى الليل النهار أن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون، وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل أن في ذلك لآيات لقوم يعقلون" (الآيتان ٣، ٤ من سورة الرعد).

وفي الاحتجاج بالماء يقول سبحانه:

"هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبتلكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات أن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون" (الآيتان ٩، ١٠ من سورة النحل).

ويقول سبحانه:

"أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجزر فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون" (الآية ٢٧ من سورة السجدة).

ويقول سبحانه:

"ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلناً عليها الماء أهتزت وربت أن الذي أحياها لمحيى الموتى أنه على كل شيء قدير" (سورة فصلت آية ٣٩).

وقد إحتج الله بالسحاب كما أحتج بالماء ولفت النظر إلى كيفية تكوينه وبسطه وإنتشاره في الأرض ليعم نفعه وخيره من يشاء من عباده، فيقول سبحانه:

"ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء" (سورة النور آية ٤٣).

ويقول سبحانه:

"الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطة في السماء كيف يشاء ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون، وأن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين، فأنظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيى الأرض بعد موتها أن ذلك لمحيى الموتى وهو على كل شيء قدير" (سورة الروم الآيات ٤٨، ٤٩، ٥٠).

وقد أحتج الله بالرياح وأبان وجه الخير فيها ووجه العجب منها فقال سبحانه:

"وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين" (سورة الحجر آية ٢٢).

وقال: "وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون" (الآية ٥٧ من سورة الأعراف).

وكما إتخذ القرآن من الرياح وتصريفها في الخير دلالة على قدرته أتخذ من الريح وتسليطها على الفاسقين المعتدين عقوبة لهم دلالة على قدرته وسلطانه أيضا فقال سبحانه:

"وفي عاد إذ أرسلناً عليهم الريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم" (الآيتان ٤١، ٤٢ من سورة الذاريات).

وقال جل شأنه: "أنا أرسلناً عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر"(الآيتان ١٩، ٢٠ من سورة القمر).

ومن طريف ما قال المفسرون: أن القرآن لم يستعمل الرياح جمعا ألا في جانب الخير والرحمة ولم يستعمل الريح مفردا ألا في جانب العقوبة والعذاب.

وقال علماء النبات أن عملية تلقيح الثمار بالرياح ونقل عناصر الذكورة إلى عناصر الأنوثة لتخرج الثمرات من هذا التلقيح كما يخرج الحيوان من بين الذكر والأنثى نظرية لم يصل إليها العلم إلا في عهد قريب وقد نبه إليها القرآن منذ نزوله منذ أربعة عشر قرنا.

وقد إتخذ القرآن من الجبال وعظم خلقها ووظيفتها في ثبات الأرض وإستقرارها دلالة على قدرته ووحدانيته أيضا فقال سبحانه:

"ألم نجعل الأرض مهادا، والجبال أوتاد" (سورة النبأ الآيتان ٦، ٧).

وقال سبحانه:

"وألقى في الأرض رواسى أن تميد بكم" (الآية ١٠ من سورة لقمان).

وقال سبحانه:

"وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شيء أنه خبير بما تفعلون" (آية ٨٨ من سورة النحل).

وقال:

"ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفة ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك" (الآيتان ٢٧، ٢٨ من سورة فاطر).

هذا ولم يصل العلم إلى الكشف عن وظائف الجبال وأنها كالأوتاد للأرض وأنها تسير وأن بدت ثابتة وأنها مختلفة العناصر في تركيبها إلا بعد مرور هذه القرون على نزول القرآن الكريم، وإتخذ القرآن الليل والنهار

وإختلافهما طولا وقصرا بإختلاف الفصول وما يوحي به ذلك من قدرة الله دلالة على ما ذكرنا فقال عز سلطانه:

"وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا" (الآية ٦٢ من سورة الفرقان).

وقال جل شأنه:

"ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر وأسجدوا لله الذي خلقهن أن كنتم تعبدون" (الآية ٣٧ من سورة فصلت).

وقال عظمت قدرته:

"وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم وأتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا" (الآية ١٢ من سورة الإسراء).

وقال سبحانه:

"وقل أرأيتم أن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون، قل أرأيتم أن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون، ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون" (الآيات من ٧١- ٧٣ من سورة القصص).

أما الإستدلال بالشمس والقمر فقد أفاض فيه القرآن ولعل ذلك لوضوح الأدلة بهما وظهور النفع فيها إذ لولاهما لكانت الدنيا عماء ولتعذرت الحياة على الغبراء وقد قرنهما الله في أكثر آيات القرآن كما قرن السماء والأرض لأشتراكهما في الوضوح وفي مرأى العيون وظهور ما فيها من الفوائد، قال تعالى:

"والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون" (الآيات من ٣٨- ٤٠ من سورة يس).

وقال سبحانه:

"هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون، أن في أختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات والأرض لآيات لقوم يتقون" (الآية ٥، ٦ من سورة يونس).

وقال جل شأنه:

"ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا، وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا" (الآيتان ١٥، ١٦ من سورة نوح).

لقد إتخذ القرآن من مظاهر الكون وما عظم من مخلوقاته أو صغر دلائل على وجوده وقدرته ووحدانيته مما ذكرنا وما لم نذكر وأقسم بأشياء

من مخلوقاته ليشير إلى فائدتهم ومنافعها وإلى ما فيها من أسرار تقوم مقام الدلائل على وجوده وبديع صنعه وأقسم ببعض الأزمنة والأمكنة والملائكة والشمسوالضحى والقمر وببعض المطعومات وبمن فضلهم من الناس فقال سبحانه:

"والذاريات ذروا، فالحاملات وقرا، فالجاريات يسرا، فالمقسمات أمرا" (الآيات من ١- ٤ من سورة الذاريات). وأقسم بالطور والنجم والنازعات وهم الملائكة، "والسماء والطارق"، "والنجم الثاقب""والتين والزيتون، وطور سينين" وأقسم"بالعاديات ضبحا" وهي خيل الجهاد وأقسم برسوله مُحَمَّد ﷺ تشريفا وتكريما فقال سبحانه: "لعمرك أنهم لفي سكرتهم يعمهون" (الآية ٧٢ من سورة الحجر).

قال العلامة القشيري:

القسم بالشيء لا يخرج عن وجهين، أما لفضيلة أو لمنفعة كقوله تعالى:

"وطور سينين، وهذا البلد الأمين" (الآيتان ٢، ٣ من سورة التين) والمنفعة نحو"والتين والزيتون" (الآية ١ من سورة التين).

وإذا علمنا أن الله تعالى أقسم بذاته تعالى فقال:

"فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم" (الآية ٦٥ من سورة النساء).

كما أقسم برسوله مُحَمَّد فقال جل شأنه:

"لعمرك أنهم لفي سكرتهم يعمهون" (الآية ٧٢ من سورة الحجر) علمناً قدر ما أقسم به من مخلوقات.

وقال العلامة بن القيم:ـ

"أعلم أنه سبحانه وتعالى يقسم بأمور على أمور وإنما أقسم بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته أو بآياته المستلزمة لذاته وأقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنها من عظيم آياته".

لقد ذكرنا ما إتخذ الله من مظاهر الكون دلائل على وجوده وقدرته مما أنبث في أكثر سور القرآن، وفي القرآن الكريم سور تكاد تستغرقها هذه الدلائل كسورة يس وق والذاريات والرحمن والملك والمرسلات والنبأ وعبس وسنقتبس منها فيما بعد نماذج من هذه الدلائل.

وفي جميع ما ذكرنا من الدلائل أشارات إلى علوم مختلفة نبه الله بها الأذهان وجعل هذه الأشارات كمفاتيح أو مداخل إلى هذه العلوم ولم يخض القرآن في تفصيل قواعد هذه العلوم لأن ذلك ليس من مقاصده أصالة، ومقصده الأول والأهم العبرة بما خلق ليسترشد الضال ويهتدي الحائر ويقنع الجاحد المكابر وفي النظر والتفكير في مظاهر الخلق وما نبه إليه كفاية في ذلك دون الحاجة إلى التعمق في دقائقهما وأسرارها العلمية التي ليست في طاقة أكثر الناس.

فيما ذكر من الدلائل أشارة إلى علم الطب وقاية وعلاجا وعلم الأحياء وعلم الهيئة والميقات وعلم الزراعة وغيرها كما سيأتي.

قال العلامة السيوطي في كتاب الإتقان في علوم القرآن:ـ

بعد أن ذكر ما أستنبط من القرآن من العلوم الدينية والعربية وقد أحتوى القرآن على علوم آخرى من علوم الأوائل مثل الطب والجدل والهيئة والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة وغير ذلك أما الطب فمداره على حفظنظام الصحةوأستحكام القوة وذلك إنما يكون بإعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة وقد جمع ذلك في آية واحدة وهي قوله تعالى:"وكان بين ذلك قواما"[1] وعرفنا فيه بما يعيد نظام الصحة بعد إختلاله وحدوث الشفاء للبدن بعد إعتلاله في قوله تعالى:

"شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس"[2].

ثم زاد على طب الأجسام طب القلوب وشفاء الصدور وأما الهيئة ففي تضامين سوره من الآيات التي ذكر فيها ملكوت السموات والأرض، وما بث في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات.

[1] هذا جزء آية من سورة الفرقان وهى قوله تعالى: والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما الآية ٦٧ سورة الفرقان.

[2] هذا جزء من آية هو قوله تعالى: وأوحى ربك إلى النحل أن أتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس أن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون، الآيتان ٦٨، ٦٩ سورة النحل.

وأما الهندسة ففي قوله تعالى:

"انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب". وأما الجدل فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج والقول بالموجب والمعارضة وغير ذلك شيئا كثيرا. ومناظرة إبراهيم نمرود ومحاجته قومه أصل في ذلك عظيم. وأما النجامة ففي قوله تعالى:

أو أثارة من علم وفيه أصول الصنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها كالخياطة والحدادة والنجارة والغزل والنسيج والفلاحة والصياغة والملاحة والبيع والشراء وغير ذلك وذكر لكل منها شاهدا من آيات القرآن فليرجع إليها من يشاء.

دلائل وحدانية الله

ولنقتبس أخيرا نماذج من سورة من السور التيإستغرقت الدلائل على وحدانية الله قدرا كبيرا منها وهي سورة الرحمن.

قال تعالى:

"الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان، الشمس والقمر بحسبان، والنجم والشجر يسجدان، والسماء رفعها ووضع الميزان، ألا تطغوا في الميزان، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان، والأرض وضعها للأنام، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام، والحب ذو العصف والريحان، فبأي آلاء ربكما تكذبان، خلق الإنسان من صلصال كالفخار، وخلق الجان من مارج من نار، فبأي آلاء ربكما تكذبان، رب المشرقين ورب المغربين، فبأي آلاء ربكما تكذبان، مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان، فبأي آلاء ربكما تكذبان، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، فبأي آلاء ربكما تكذبان".

في هذا القدر من الآيات من سورة الرحمن تعداد لنعم الله وآلائه على الإنسان في خلقه ومعاشه وكلها دلائل واضحة وقوية الدلالة على قدرة الله ووحدانيته وتفرده بالسلطة والتدبير والحكمة وليس فيها إحالة على مجهول، ولا تحتاج إلى التنبه إلى مواقع العظة فيها فتكون مجالا للشك والتردد إذ هي آيات بينات في أنفسنا، خلق الإنسان، علمه البيان، وآيات

أمام أعيننا لا تغيب عنها نستضيء بها وننتفع بها في زروعنا وضبط مواقيتنا في عباداتنا ومعاملاتنا: "الشمس والقمر بحسبان"، وآيات في زروعنا حين تخضر وتينع ثم تصفر وتيبس على نظام مطرد لا يختلف، وفي هذا دلالة على وجود مسخر مدبر لهذا النظام، وآيات في تخيلنا ذوات الأكمام، وفي حبنا ذي العصف والريحان، وفي أصل خلقنا من صلصال كالفخار، وفي خلق الجن من لهيب خالص أو غير خالص من الدخان، وفي ترتيب منازل القمر والشمس على وجه لا يستطيعان إنحرافا عنه، وفي خلق المياه العذبة والمالحة وإخراج اللؤلؤ والمرجان منها وإجراء السفن فيها شارعة قلاعها كالأعلام لتبادل المنافع وتيسير سبل الحياة في كل تلك الآيات، بل في كل آية منها آيات لمن تفكر فيها أي تفكر أو التفت إليها أدنى التفات، وأنها لتستنطق العاصي بوحدانية الله حين يستدفيء بالشمس في اليوم الحر، ويستبرد بالهواء في هاجرة الحر،ويستضيء بالقمر في الليلالحالك، وتقله السفن إلى شتى المسالك، وحين تأخذ ناظرية روعة النبات، ويستعذب طعوم الفواكه والثمرات.

نقل العلامة القرطبي عن مُحَمَّد بن علي الترمذي مما أختاره الكلبي في بيان معنى هذه الآيات.

هذه السورة من بين السور علم القرآن، والعلم أمام الجند والجند تتبعه وإنما صارت علما، لأنها سورة صفة الملك والقدرة فقال:

"الرحمن، علم القرآن"إفتتح السورة بإسم الرحمن من بين الأسماء ليعلم العباد أن جميع ما تصفه بعد هذا من أفعاله ومن ملكه وقدرته خرج إليهم من الرحمة العظمى من رحمانيته فقال:

"الرحمن، علم القرآن" ثم ذكر الإنسان فقال:

"خلق الإنسان" ثم ذكر ما صنع به وما من عليه به، ثم ذكر حسبان الشمس والقمر وسجود الأشياء من نجم وشجر، وذكر رفع السماء ووضع الميزان وهو العدل، ووضع الأرض للأنام، فخاطب هذين الثقلين الجن والإنس حين رأوا ما خرج من القدرة والملك برحمانيته التي رحمهم بها من غير منفعة ولا حاجة إلى ذلك فأشركوا به الأوثان، وكل معبود أإخذوه من دونه، وجحدوا الرحمة التي خرجت هذه الأشياء بها إليهم، فقال سائلا لهم: "فبأي آلاء ربكما تكذبان" أي بأي قدرة تكذبان وإنما كان تكذيبهم أنهم جعلوا هذه الأشياء التي خرجت من ملكه وقدرته شريكا يملك معه ويقدر معه فذلك تكذيبهم.

ونلاحظ هنا أن الكلبي فسر آلاء الله بقدرة الله، وفسرها غيره بنعم الله، وكلا التفسيرين يفي بالغرض الذي قصدنا إليه وهو بيان قدرة الله وعظيم سلطانه وإستحقاقه وحده العبادة دون غيره مما إتخذ من الشركاء.

اتجاه الفلسفة الحديثة في تقرير الوجود الإلهي:ـ

ذلك منهج القرآن في تقرير وجود الله والدلالة على وحدانيته وقدرته، ولقد كانت للفلسفة الحديثة مذاهب في الحقيقة الإلهية كما كانت للفلسفة القديمة، والمذاهب الفلسفية الحديثة في هذه الحقيقة تربطها بالمادة وتحاول أن تفسرها في هذا النطاق وقد رأى أشهر الفلاسفة وأحدثهم أن الله ذات تفضلكل ذات من هذه الموجودات((أن الذات موقوفة على ما عداها وأن وجودها هو وجود غيرها)).

ويتشعب القول في تحليل تلك المذاهب وينقض لاحها سابقها وتتفق كلها في ظهور الإضطراب فيها وتتسم كلها بالغموض حتى يصح أن يقال فيها أنها مذاهب شخصية لا يفهمها إلا أصحابها وما كان كذلك لا يصح أن يقال أنها دلائل لإرشاد البشر كافة إلى العقيدة الإلهية الصحيحة كما تريد الأديان، والغريب أن ما يبدو فيتلك المذاهب من بصيص المعرفة والإقناع بحقيقة الإله وبوجوده هو قبس مما جاءت به الأديان وأرشد إليه القرآن وهذا البصيص هو التسليم بالعجز عن معرفة تلك الحقيقة ومما نقل عن أحدهم: إذا خاطب العلماء والفلاسفة فأجوج ما نراهم محتاجين إليه هو الشجاعة على إحتمال تبعة الإعتقاد وأن لم تؤيده التجربة العلمية والبراهين المنطقية فأنهم يخيرون إذا كانت العقيدة صحيحة وجنبوا عنها في إنتظار تجربة أو برهان.

إن الله لم يبعث الأنبياء ولم ينزل الكتب ليقتنع بها الفلاسفة والماديون في معاملهم ولو فعل ذلك وحاشاه لم يؤمن به وبوحدانيته وجلاله وقدرته إلا أفراد من كل جيل، ولبطلت رسالات الرسل، وأهملت وظائف الكتب، ولكن بعث الرسل وأنزل الكتب وأقام الدلائل بما يصح في الأذهان وبما تعلمه كل العقول دون معامل أو مخابر أو معادلات وبما يقع تحت الحس وليس بعد الحس برهان.

ليقل الفلاسفة في تفسير الألوهية ما يشاءون ولبشحذوا عقولهم بما يستطيعون فسيطل سفرهم دون أن يبلغوا من ذلك غاية وستبقى تلك الحقيقة كما قرر الله في كتبه وعلى ألسنة رسله موجزة واضحة وضوحها في العجز عن إدراك كنهها مع التسليم بوجودها:

"**ووسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم**" (الآية ٢٥٥ من سورة البقرة).

ولقد أولع الصوفية بمعرفة الله وإهتاجت نفوسهم شوقاً إلى قربه وولهوا بحبه ولكن لم يحوموا حول حمى ذاته ليحاولوا التعريف إلى تفصيل ماهية تلك الذات تهيبا وإجلالا ووقوفا عند حدود ما أمر به الشرع وإكتفوا بالرمز إليه يناجونه ويتضرعون إليه ويستعطفونه ويسترخصون في أرضائه المهجوالأرواحويرون الغفلة عنه وعن ذكره شركا به وردة عنه يقول الصوفي الصادق عمر بن الفارض:

وعن مذهبي في الحب مالي مذهب

وأن ملت يوما عنه فارقت ملتي

ولو خطرت ليفي سواك أرادة

على خاطري سهوا قضيت بردتي

لك الحكم في أمري فما شئت فاصنعي

فإنك ألا منك لا عنك رغبتي

هذا مع أنه كان منهم محدثون ومتكلمون وحكماء وعرفوا بأنهم أهل الحقيقة أي الذين يبحثون عن حقائق الأمور مما غاب عن أهل الظاهر الذين يقفون عند ظواهر الأعمال، ومن رأينا أن هؤلاء الفلاسفة في التفسير للحقيقة الإلهية هم وعبدة الأصنام سواء بفارق واحد هو أن عبدة الأصنام إختصروا الطريق وأراحوا عقولهم وإتخذوا من هذه الأحجار آلهة حين قصرت عقولهم عن إدراكها أما هؤلاء الفلاسفة فقد كدوا عقولهم وجعلوا ينحتون من المادة آلهة لا نعبد إذا سميناها آلهة القرن التاسع عشر أو العشرين حيث كانوا هم فلاسفة هذين القرنين. والغريب أن هؤلاء الفلاسفة كلما أطالوا في الشرح والتحليل كما زادوا آراءهم غموضا إذ أنهم يحلون الأشكال بأشكال منه يعرف ذلك من تتبع بحوث هؤلاء في هذا الموضوع وليس هناك فرق كبير بين كتب المتقدمين والمتأخرين منهم.

إن الحقيقة الإلهية في أذهان العام أوضح منها في ذهن الفليسوف، والعاميفي كل لحظة على صلة بها في حركته وسكونهونومه ويقظته ومأكله

ومشربه وعلى صلة بها في ضوء الشمس والقمر وفي حبة القمح وفي حلاوة العنب ونضرة الزهر ورونق الورد وفيما لا يحصى من الخلائق.

أما الفليسوف فأنه إزاءها حائر مضطرب يستنطق معامله فلا تنطق ويسأل مخابره فلا تجيب ولا يخرج من معاناته إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه.

أن لهؤلاء مجالات فيما بث الله في الكون من أسرار وعجائب أولى بهم أن يصرفوا فضل عقولهم إليها ويريحوا أنفسهم مما أراحهم الله منه وأجدر بهم أيضا أن يعتبروا بأسلافهم ممن أنفقوا العمر ثم مضوا وما تركوا لنا إلا طلاسم وألغاز تستنزل عليهم سخط الساخطين ولوم اللائمين.

وإن من العناء بل ومن الأعنات ومن الخطأ بل من الخطر أن نقحم الشباب في مثل هذه الفلسفة وفي هذا الموضوع بالذات وهم في مرحلة المراهقة أو مرحلة القلق الفكري فأنها لا شك تاركة في نفوسهم الشك والحيرة. والبلبلة الفكرية كما نشاهد الآن، وأن أكثر الشباب إضطرابا وحيرة هم الذين يتعرضون بحكم دراساتهم لمباحث تتصل بأصل الخلق والتكوين وتطوراته وقديما أفتى بعض العلماء بحظر البحث في مثل هذه الموضوعات حرصاً على سلامة عقائدهم وصحة عقولهم.

لقد ثبت بما ذكرنا من دلائل القرآن المنبثة في أكثر من سوره أن الله موجود وأنه واحد وإذ أثبت أنه واحد لا ند له ولا نظير وأنه المتصرف في خلقه بالخلق والتكوين والتصرف والتدبير والأحياء والأماتة والأعطاء

والحرمان فقد ثبتت له صفات الكمال كلها من القدم والبقاء والقدرة والإرادة والعلم والحياة وغيرها مما ذكره المتكلمون وورد فيالقرآن والسنة مما جاء صريحا بالإسم كالخلق الباري القوى القادر والرحمن الرحيم والرءوفوالودود والمنتقم والجبار ومما إشتق مما أسند إليه من الأفعال نحو: الصادق المنعم المتفضل والمنان والباعث والباقي مما يسمى بالأسماء الحسنى، فهى وأن كانت أسماء تدل على الذات، إلا أن دلالتها على الصفات ملحوظة عند الإطلاق وهى مشهورة عند المسلمين يحفظونها وينقلها سلفهم إلى خلفهم وهي تسعة وتسعون إسماورد بها الحديث المشهور:

"ان الله تسعة وتسعين أسما من أحصاها دخل الجنة" ونلاحظ أن في تلك الأسماء ما يدل على الرعاية واللطف والرحمة كالرب والرحيم والودود، ومنها ما يدل على الشدة والعقوبة وليس في ذلك تناقض لأن رب الناس هو الذي يربيهم بما يصلحهم ويزكيهم والتزكية والإصلاح تارة تكون باللين والرأفة وتاره تكون بالشدة والعقوبة والله خالقهم وخبير بأحوالهم وإستعداداتهم وعليم بما يلائمهم في توجيههم وتهذيبهم في جميع مراحلهم وعلى إختلاف طوائفهم)).

وإن مما يثير الغرابة من أقوال المستشرقين في هذا الصدد قولهم: إن إله المسلمين كما وصف في القرآن إله يتسم بطابع القسوة والشدة لما وجدوه في القرآن من مثل قوله عز وجل: "والله عزيز ذو إنتقام" (الآية ٤ من سورة آل عمران).

وقوله "شديد العقاب ذو الطول لا إله إلا هو إليه المصير" (الآية ٣ من سورة غافر).

وقوله:

"أن بطش ربك لشديد" (الآية ١٣ من سورة البروج).

وقوله:

"هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر" (الآية ٢٣ من سورة الحشر).

وتغافلوا عن أن هذه الأوصاف إنما وردت في مقامات التخويف والتحذير مما لا يصح أن يفارقه المؤمن من الخطايا والذنوب التي تسوءهم في أنفسهم ومجتمعهم، وأوصاف الرحمة والرأفة إنما وردت في مقامات الترغيب والإغراء بما ينفعهم وينفع مجتمعهم وهذه هي الحكمة في التربية والإصلاح لين في موضع اللين وشدة في موضع الشدة وقد أعرب عن هذه الحكمة أحدالشعراء إذ قال:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازمافليقس أحيانا على من يرحم

ولقد أشار صاحب المنار إلى الحكمة فيإختلاف أوصاف الله سبحانه فيإتصافها بالشدة واللين.

وربما كان يعني بما ذكر الرد على هؤلاء المستشرقين.

فقال في تفسير قوله تعالى في سورة الفاتحة:

الرحمن الرحيم، قال:

ولا يتناقض عموم الرحمة وسبقها ما شرعه الله من العقوبة في الدنيا وما أعده من العذاب في الآخرة للذين يتعدون الحدود وينتهكون الحرمات فأنه وأن سمى قهرا بالنسبة لصورته ومظهره فهو في حقيقته وغايته من الرحمة لأنه فيه تربية للمسلمين وزجرا لهم عن الوقوع فيما يخرج عن حدود الشريعة وفي الإنحراف شقاؤهم وبلاؤهم وفي الوقوف عندها سيادتهم ونعيمهم والوالد الرءوف يربي ولده بالترغيب فيما ينفعه والإحسان عليه إذا قام به وربما لجأ إلى الترهيب والعقوبة إذا أقتضت ذلك ولله المثل الأعلى.

وأشد ما يثير الضحك وأعجبه أن يقول بعض هؤلاء أن إله المسلمين إله قسوة وإله غيرهم إله عطف ورحمة كالأب والراعي.. وكأن للمسلمين إلها ولغيرهم آلهة.

وهل يصلح من يفكر هذا التفكير أو يرى مثل هذا الرأي أن ينسب إلى العلم ويسلك في زمرة العلماء ويعطي لقب الباحث ويشتغل الدارسون ببحث آرائه. أن مثل هذه الآراء لو طرقت أسماع العامة لنفروا منها وسخروا بها وهل يكون رب ليس له من وسائل التربية إلا اللطف والرقة يسوس بها الفاجر والمتمرد والغادر كما يسوس بها المنقاد والطائع أنها تسوية ينكرها العقل قبل أن ينكرها الشرع وفي ذلك يقول تعالى:

"أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون" (الآية ١٨ من سورة السجدة).

ويقول:

"أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار" (الآية ٢٨ من سورة ص).

إن صفات الله تعالى وإن إختلفت مفاهيمها فإنها تلتقيفي أنها كلها كمال وكل وصف وصف الله به نفسه فهو أهل له علينا أن نؤمن به كما ورد ولكل صفة وظيفتها تتجلى بها في الوجود في الوقت المحدود كما يشاء واهب الوجود.

هذا واسأل الله العصمة من الزلل، والحمدلله أولاً وآخراً وعلى سيدنا محمَّد أفضل الصلاة وأزكى السلام.



الفهرس

مقدمة ٦
فكرة التوحيد ٧
معبودات القدماء ١٠
آراء الفلاسفة في تعدد الآلهة ١٢
مجال الفكر البشري ١٣
معرفة الصفات ١٦
التعريف بصفات الله سبحانه ١٦
دعوة الأنبياء إلى توحيد الخالق ١٨
القرآن والعقل ٢٧
دلائل وحدانية الله ٤٦
اتجاه الفلسفة الحديثة في تقرير الوجود الإلهي ٤٩